عمارة بن عقيل الإنسان الشاعر

أ.د / جمـــال عيسى
أستاذ الأداب والنقد
بكلية الآداب جامعة طنطا

عمارة بن عقيل الإنسان الشاعر(*)

عمارة الإنسان:

هو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفى من بنى كليب بن يربوع التميميين[١]. يكنى أبا عقيل.

يقول ابن رشيق القيروانى: "من بيوتات الشعر فى الإسلام بيت جرير. كان هو وأبوه عطية وجده الخطفى شعراء، وكان بنوه وبنو بنيه شعراء... قال أبو زياد الكلابى: رأيت باليمامة نوحا وبلالا ابنى جرير وهما يتسايران، ولهما جمال وهيئة وقدر عظيم، وأشعر من باليمامة يومئذ حجناء بن نوح بن جرير، وكان عقيل بن بلال شاعرا، وعمارة ابنه شاعرا. أدرك الطائى حبيبا. ولقيه المبرد"[٢].

نشأ عمارة بن عقيل فى اليمامة موطن آبائه. ولم تشر المصادر إلى السنة التى ولد فيها، وإن كنا نظن ظنا أنه ولد فى أثناء الثلث الأخير من القرن الثانى الهجرى، لأنه عندما غادر اليمامة نزل بغداد أول ما نزل من الأمصار فمدح الخليفة المأمون ووجوه قواده، واتصل بإسحاق بن إبراهيم المصعبى الخزاعى الذى سهل لعمارة الطريق إلى المأمون. وتذكر الروايات أن الناس اجتمعوا حوله وكتبوا شعره[٣].

ولم تسعفنا المصادر بالأخبار التى تبين ملامح سيرته الأولى التى اكتملت فيها شاعريته قبل أن يرحل إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية.

وأغلب الظن أن شاعرنا كان يحفظ أشعار جده جرير وطائفة غير يسيرة من شعر الشعراء الذين ناقضهم وناقضوه مثل الفرزدق والأخطل والراعي النميري والبعيث المجاشعي وغيرهم.

وتشير الروايات إلى أنه كان غير موفق فى زواجه. فقد روى أنه قال: "كنتُ آمرءًا دميما داهية، فتزوجت امرأة حسناء رعناء ليكون أولادى فى جمالها ودهائى، فجاءوا فى رعونتها ودمامتى"[٤].

(*) أ.د/ جمال عيسى - أستاذ الأدب والنقد بكلية الآداب جامعة طنطا .

وكان متوقد الذهن حاضر البديهة، يقول المبرّد: "كنا عند عمارة بن عقيل فقال: ألا أُعجبكم، مرت بى امرأة متخفرة، فلما قربت منى مرت وقالت: يا شيخ: ألا تعجبك الملاح؟! فقلت: بلى

وتعجبنى الملاح وكل دلّ ... ولكن لا أراكِ من الملاح

وكلُّ مليحة كالبدر تبدو ... إذا سفرتْ وأنت من القباحِ[٥]

والذى يبدو أن عمارة بن عقيل كان ينتقل بين بغداد حاضرة الخلافة وبين البادية، فقد كان مدّاحا للخلفاء والوزراء والأشراف والقواد فى بغداد، حتى إذا كسب مالاً عظيما انصرف إلى بادية اليمامة موطن آبائه، وإذا ما أنفق هذا المال فى البادية رجع إلى بغداد مرة أخرى ذلك شأن جده جرير وشأن الأخطل التغلبى، إذ كان جرير يفد إلى البصرة والأخطل يفد إلى دمشق حاضرة الخلافة الأموية، ومدح عمارة بن عقيل من الخلفاء العباسيين: المأمون، والواثق، والمتوكل، ونال منهم العطايا الجزيلة.

ولعمارة فى إسحاق بن إبراهيم المصعبى الخزاعى أمير بغداد مديح كثير، ومدح خالد بن يزيد بن مَزْيد الشيبانى بأكثر من قصيدة. والحق أنه كان صادقًا فى مديح خالد بن يزيد بن مَزْيد الشيبانى، وقد رثاه عند موته، بقوله:

رحم الله خالدا فلقد ما ... تَ حميدا وعاش ذا إفضالِ

لم يَمُتْ موسرا من المال لكـ ... ـنْ موسرا من محامد وفعالِ

ويبدو أن عمارة بن عقيل كان مقربا من الخليفة الواثق، فقد روى الطبري وغيره أنه كلم الخليفة الواثق فى عبث بنى نمير وفسادهم فى الأرض، وإغارتهم على الناس فى اليمامة وما قرب منها، فكتب الخليفة إلى قائده بُغا يأمره بحربهم، فسار بغا إليهم وأوقع بهم[٦].

والعداء بين أسرة جرير الشاعر وبين بنى نمير كان مستحكما، والعلاقة بين جرير وبين الراعى النميرى معروفة، والعلاقة بين عمارة بن عقيل وبين بنى نمير كانت

كسابقتها، وكان عمارة بن عقيل ينحو نحو جده جرير فى الهجاء والمناقضة، وقد هجا تميم بن خزيمة بن حازم النهشلى التميمى ويحيى بن أكثم قاضى البصرة، والخليل بن أحمد الفراهيدى العالم المشهور، ومن الذين ناقضهم عمارة بن عقيل وناقضوه: أبو جَنّة الأسدى، حكيم بن عبيد، خال ذى الرمة الشاعر المعروف، وفروة بن حُمَيْصة الأسدى كان بينه وبين عمارة هجاء طال أمده.

وأبو الرديني العكلى هجا عمارة فخبثه، ورجاء بن هارون أخو تيم اللات ابن ثعلبة. وشاعر من نمير اسمه رأس الكبش كان بينه وبين عمارة نقائض. سنقف عليها فى باب الهجاء.

ولا خلاف فى أن عمارة اكتمل شبابه فى بادية البصرة قبل أن يعرف بغداد ومباهجها، واستقرت فى نفسه تقاليد الأعراب، فلم تؤثر فيه تقاليد المجتمع البغدادى الحضرية التى من شأنها أن تخفف من وطأة العادات والتقاليد البدوية. وتشير الروايات إلى أن عمارة عمى قبل موته بعدما أسن، ويبدو أن بنيه قد عقوه ولم يحسنوا معاملته وقد أشار إلى ذلك فى شعره(٧).

والذى يبدو أن بغداد لم تستهو شاعرنا، إذ كان حب البادية مسيطرا عليه مع ما فى بغداد من المباهج والهبات التى تنهال عليه من ممدوحيه، ومع ما فى البادية من شظف العيش وجفاف الحياة، يقول : مشوقا للبادية:

لَمُسْتَمطر بالرمل فى بيت حُرَّةٍ هجانٍ بحبل ذى ألاءٍ وعَرْفجِ(٨)

تخور به الغزلان كل عشية إلى كل خِشْفٍ كالسوار وتخرج(٩)

أحبُ إلينا من قراقير ساحلٍ بدجلةَ أو قصرٍ ببغداد مُرْتَجِ

وفى شعره ما يدل على أنه كره بغداد فى فترة من حياته، فذمها قائلا(١٠):

ما أنت يا بغداد إلا سَلْحُ إذا اعتراكِ مطر أو نَفْحُ

وإن جَفَفْت فتراب بَرحُ

وتسير حياة عمارة بن عقيل متنقلا ما بين اليمامة وبغداد وسامراء والبصرة يمدح

الخلفاء ورجالات الدولة ويجالس العلماء الذين يأخذون عنه اللغة أو يسألونه عن شعر جده جرير.

ولم تشر المصادر التى ترجمت له إلى المكان الذى فاضت روحه بـه ولا السنة التى توفى فيها[١١] ويذكر أبو الفرج الأصفهانى أن عمارة وفد على المتوكل فعمل فيه شعرًا فلم يأت بشيء، وكان عمارة قد اختل وانقطع فى آخر عمره، فسار إلى إبراهيم بن سعدان المؤدب، وكان قد روى عنه شعره القديم كله، فقال له عمـارة: أحـب أن تخرج إلىَّ أشعارى كلها لأنقل ألفاظها إلى مدح الخليفة، فقال إبراهيم بـن سـعدان: لا والله، أو تقاسمنى جائزتك فحلف له على ذلك، فأخرج إليه شعره، وقلب قـصيدة إلـى المتوكل، وأجذبَّها منه عشرة آلاف درهم، وأعطى إبراهيم بن سعدان نصفها[١٢].

وكان يعاصر عمارة من الشعراء: أبو تمام، ودعبل بن علي الخزاعى والبحترى، وعبد الله بن أبى السمط، وعبد الصمد بن المعذَّل وغيرهم.

وكان يعاصره من اللغويين: محمد بن زياد بن الأعرابى، وعلـي بـن المغيـرة الأشرم، وأبو عمر الجَرَّمى، وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيـرهم، وكـان النحويـون واللغويون قد رووا لعمارة روايات فى اللغة والغريب، ومن مثل ذلك ما ذكره أبو على القالى البغدادى فقال: قرأت على أبى بكر بن دريد رحمه الله لطفيل الغنوى:

كـأن علـى أعرافـه ولجامـه سنا ضَـرم مـن عـرفج مُتلَهِّـبِ

وكان ابن الاعرابى يقول: سألت غنيا كلها أو سمعت غنيا تقـول: إنمـا وصـفه بالشقرة. شبه شقرته على عنانه فى حر الشمس بتوقد النار فى يبس العـرفج. وكـان عمارة بن عقيل يقول أيضا: وصفه بالشقرة[١٣].

ومع براعة عمارة بن عقيل وتمكنه من اللغة فقد ضعَّفه أبو حاتم السجستانى فـى اللغة ووصفه بأنه ليس ممن يُعْتَمد عليه فيها[١٤].

وتذكر الروايات أن بعض العلماء من مثل أبى العباس محمد بن يزيد المبرد. وأبى عبيدة معمر بن المثنى، وأبى محمد التوزى كانوا يسألون عمارة بن عقيل عن شـعر

جده جرير فيجيبهم مصححا رواية بيت ومبيِّنًا معناه إن كان فيه لفظ يغمض عليهم وموضحا الأمكنة التى ترد فى تضاعيف القصيدة. وهو بذلك يعد السادن على تراث جده الشعرى فى العصر العباسى، يقول أبو سعيد السيرافى: قال محمد بن يزيد أبو العباس: قرأت على عمارة ابن عقيل بن بلال بن جرير لأبى حد التوزى محمد جرير التى أولها:

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى لا زلتَ فى فنن وأيك ناضر

حتى صرتُ إلى قوله:

أما الفؤاد فلن يزال مُوكّلا بهوى جُمانَة أو بريّا العاقرِ

فقال له التوزى: ما هما؟ فقال عمارة: ما يقول صاحبكم يعنى أبا عبيدة؟ فقال التوزى: قال: هما امرأتان. فضحك عمارة ثم قال: هما- والله- رملتان من عن يمين بيتي وعن شماله. فقال التوزى: اكتب، فإن أبا عبيدة لو حضر هذا لأخذ هذا الضرب عنه، هذا بيت الرجل(١٥).

وفى نقائض جرير والفرزدق نجد أبا عبيدة معمر بن المثنى يعتمد على عمارة بن عقيل فى اختيار الرواية الصحيحة لنقيضة من نقائض جرير والفرزدق، وكذلك يرجع إليه فى كثير من الشروح والتفسيرات الواردة فيها على شاكلة قول جرير:

طلبتُ قيون بنى قُفَيْرة سابقًا غَمْرَ البديهة جامحا فى المسْحَلِ

حدثنى عمارة بن عقيل قال: "أم قفيرة اسمها المذبّة، وكانت المذبة وليدة لكسرى وهبها لزرارة بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم، فوهبها زرارة لابن أخيه يثرى بن عدس بن زيد، وزوجها مَرْثد بن الحارث أو زياد ابن الحارث، فساعاها أخوه سُكَيْن بن الحارث، فجاءت بقُفَيْرة، فجاءت بأجمل من الشمس، فتزوجها ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع على أنها من عبد الله بن دارم فنعاها عليه جرير"(١٦).

عمارة الشاعر:

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: "خُتمت الفصاحةُ فى الشعراء المُحْدثين بعمارة بن عقيل"[١٧].

وقال سلْم بن خالد بن معاوية بن أبى عمرو بن العلاء: "كان جدى أبو عمرو يقول: ختم الشعر بذى الرمة، ولو رأى جدى عمارة بن عقيل لعلم أنه أشعر فى مذاهب الشعراء من ذى الرمة"[١٨].

وقال ابن المعتز: "حدثنى مسلم بن رياح الجريرى قال: حدثنى أبو رياح ابن عمرو قال: "قدم عمارة من البادية إلى الحضر حين اتصل بالناس شعر، وكان أشعر أهل زمانه، وكان ينحو نحو أبيه وجده، ولا يأخذ فى معنى من المعانى إلا استغرقه، وكان نقى الشعر، محكم الرصف جيد الوصف. من أهل بيت الشعر. وكان مداحا للخلفاء والوزراء والأشراف والملوك فكسب مالا عظيما وانصرف إلى البادية"[١٩].

ولما قدم عمارة بن عقيل بغداد اجتمع الناس إليه وعرضوا عليه الأشعار فأنشدوه قول أبى تمام:

وطول مقام المرء فى الحى مُخْلِقٌ ... لديباجتَيهْ فاغتربْ تتجدَّدِ

فإنى رأيت الشمسَ زيدت محبةً ... إلى الناس أنْ ليستْ عليهمِ بسرْمدِ

فقال عمارة: كَمُل والله، إن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعانى واطراد المراد، واستواء الكلام، فصاحبكم هذا أشعر الناس، وإن كان بغيره فلا أدرى[٢٠]. ويذكر ابن النديم أن لعمارة بن عقيل ديوان شعر بلغ عدد ورقاته ثلاثمائة ورقة، وابن النديم يعنى بالورقة أن تكون سليمانية. ومقدار ما فى صفحة الورقة عشرون سطرا[٢١].

معانى الشعر عند عمارة:

نلاحظ أن عمارة بن عقيل مع أنه من الشعراء الذين عاشوا فى العصر العباسى الأول (نهاية القرن الثانى والثلث الأول من القرن الثالث الهجرى) فشعره فى مجموعة

تتمثل فيه السمات الفنية للشعر البدوى عامة خلا بعض القصائد والمقطوعات التى يبدو فيها أثر البيئة واضحًا، ويبدو أن شاعرنا عمارة بن عقيل مع أنه عباسى أكثر توغلا فى المعانى والصور المستمدة من البيئة البدوية فى ضاديته المشهورة من جده جرير، وهو إسلامى، فى بعض نقائضه مع الأخطل أو مع الفرزدق أو فى مدائحه التى مدح بها الحجاج بن يوسف الثقفى.

وعمارة بن عقيل شاعر مطبوع، وهو لم يكن مثل معاصره أبى تمام الذى أخضع شعره للفكر الدقيق الغامض وأفرط فى استخدام ألوان البديع، ولأنه شاعر مطبوع نراه يذم الخليل بن أحمد الفراهيدى فى اختراع بحور الشعر على شاكلة قوله:

لولا الإله وأننى متخوف ... مما أقول لعنتُ قبر خليل

القى مسائل فى العروض تغُمنا ... من فاعلن مستفعلن وفعول

ويلاحظ أيضا أن معظم شعر عمارة بن عقيل يجرى وفقا لبحور الشعر وأوزانه المتكررة فى الشعر الجاهلى فى مثل الطويل والكامل والوافر والبسيط.

وفضلا عن الهجاء والنسيب والرثاء والمديح فقد برع فى الوصف وقد وجدت له مقطوعتين فى بغداد ووصف ما بها من قصور ورياض، وفى النسيب يذكر الأطلال والرسوم الدارسة وخيال الصاحبة أو طيفها متأثرًا بتقاليد الشعراء السابقين على شاكلة قوله(٢٢):

حيا الإله خيالها من دانِ ... لو كان زار زيارة اليقظانِ

لو كان عَرَّج أو تعلل ساعةً ... حتى نسائلَهُ عن الأوطان

وكذلك قوله يرد على رجاء بن هارون أخى بنى تيم اللات بن ثعلبة:

حَيَّ الديار كأنها أسطارُ ... بالوحى تدرس صُحفَها الأخيارُ

لعب البلى بجديدها فتنفست ... عرصاتها الأرواح والأمطارُ

الوصف:

لعمارة بن عقيل مقطوعتان يصف فيهما بغداد. مطلع الأولى[٢٣]:

ماذا ببغداد من طيب أفاتين ومن عجائب للدنيا وللدين

ومطلع الثانية[٢٤]:

أعاينت فى طول من الأرض والعرض كبغداد دارًا إنها جنّة الأرض

وفى المقطوعة الأولى يصف الشاعر بغداد بأنها منفردة عن المدن بالجمال وحسن الشعراء والعلماء من محدثين وفقهاء ولغويين وأدباء وقضاة. وأن النفوس تحيا بفوح أزهارها وأريج رياحينها من نرجس وخيرى ونسرين وفيها القصور الشاهقات التى تنتشر بين أرجائها الحسان اللائى يشبهن البقر الوحشى فى اتساع العيون وسوادها. أما نهر دجلة الذى يشطر بغداد فترى فيه السفن السود المطلية بالقار تعلو صفحة مائه كالبراذين، أما القباب وأبواب القصور فهى أنيقة مزخرفة. وفى دجلة ما فيه من كل حرّاقة تعلوها قصور من الساج ذوات الأساطين.

وفى المقطوعة الثانية يصف بغداد بأنها جنة من جنات الأرض، والعيش قد صفا فيها بخلاف غيرها من المدن، وغذاؤها مريء مستساغ، ويعمها الأمن والاستقرار بخلاف الشام التى لا تنام عين الغريب بها، ثم يبدى الشاعر تحسره على عزّ بغداد الزائل بسبب تحول الخلفاء عنها إلى سامراء.

ففى هاتين المقطوعتين نرى صورة بغداد نابضة بالحياة بما فيها من أدباء وعلماء ورياض وأزهار وقصور شاهقات وفتيات حسان، وبما يعمها من أمن ورخاء وجمال ودعة واستقرار. ونلاحظ من خلال المقطوعتين أن شاعرنا حضرى فى صوره وأسلوبه قد استهوته بغداد بزخارفها ومباهجها ونهرها وعبير أزهارها، ولكننا فى الوقت نفسه نستشعر بداوته المتأصلة فى نفسه وخاصة فى هذا البيت:

ما أنت يا بغداد إلا سَلْحُ إذا اعتراكِ مطر أو نَفْحُ

وإن جَفَفْت فتراب بَرحُ

الرثـاء:

لا يوجد لعمارة بن عقيل فى الرثاء إلا عشرة أبيات موزعة على ثلاث مقطوعات يرثى بمقطوعتين منها خالد بن يزيد بن مزيد، وبالثالثة يرثى أخاه، والمقطوعة الأولى يستهلها بقوله[٢٥]:

رحـم الله خالـدا فلقـد مـا تَ حميـدا وعـاش ذا إفـضالِ

والمقطوعة الثانية يقول فيها[٢٦]:

غـدا ناعيـك حـين غـدا بخطـب يبـث الـشيبَ فـى رأسِ الوليـدِ

والمقطوعة الثالثة فى رثاء أخيه مطلعها:

أخـى يـوم أحجـار الثُّمـامِ بكيتُـهُ ولـو حُـمَّ يـومى قبلـه لبكـائى

ففى المقطوعة الأولى نستشعر وفاء الشاعر للفقيد المرثى، هذا الفقيد وإن مات عاريا عن المال فقد كان غنيا فى مناقبه ومحاسنه وخصاله الحميدة.

وفى المقطوعة الثانية تظهر لنا شدة وقع نعى خالد بن يزيد على نفس الشاعر، وهذا النعى فى هوله وشدته يُقْعد الرجل القائم، ويبعث الرجل القاعد الذى احتبى بثوب على القيام من أثر الفجيعة.

وفى المقطوعة الثالثة يبكى أخاه ويتحسر على فراقه ويتمنى لو أنه نُعى إلى الناس بدلا منه، وهذا الرثاء مقتضب سريع فيه وقار البدوى وتكلفه الصبر وحسن العزاء، رثاء بسيط ليس فيه تكلف أو صنعة أو تعقيد، وفيه حزن عميق يذكرنا بصدق جرير فى رثائه وبكائه وحزنه على ابنه وعلى زوجته أم حَزْرة، ونحن لا نجد رواجا فى هذا الرثاء للمفاهيم الإسلامية على نحو ظاهر من مثل التقوى والإخلاص لله والجهاد فى سبيل الله ومقاتلة الكفار القضاء على أعداء الخليفة.

فن الهجاء:

لاحظت عند قراءة ديوان عمارة بن عقيل أنه امتلك ناصية فن الهجاء بشقيه الفردى والقبلى، فقد قام بهجاء بعض شعراء عصره من المغمورين كما هجا بعض رجالات عصره، وقد أحيا فن النقائض ولا عجب فهو حفيد قطب رحاها فى العصر الأموى فقد نقل لنا الأصفهانى بسنده خصومة وقعت بينه وبين فروة بن حميصة ومؤداها[٢٧]:

إن عمارة كان جالسا مع المأمون، فإذا به يسمع هجاء فروة إياه، فدخله - "ما الله يعلمه" - فقال للمأمون:

"يا أمير المؤمنين أهجى فى دارك وبحضرتك؟ وكان سبب ذلك كما تفيد رواية الأغانى أن عمارة قال قصيدة فى هجائه، ومنها:

ما فى السوية أن تجّر عليهم وتكون يوم الروع أول صادر

روى الأصفهانى عن فروة قوله: "والله ما قتلنى إلا هذا البيت".

وقد طال التهاجى بينهما، ولم يكتب لأحدهما الغلبة على الآخر حتى قُتِل فروة.

وتمدنا مصادر أخرى غير الأغانى بأخبار خصومة أخرى وقعت بين عمارة بين عقيل وشاعر يدعى أبا جنة واسمه حكيم بين عبيد، ويقال له: حكيم بن مصعب، خال ذى الرمة الشعر الأموى[٢٨] غير أن هذه النقائض قد ضاعت ولم تصلنا عنها سوى هذه الإشارات الضئيلة.

كما كانت هناك خصومات بين عمارة وشاعر يدعى أبا الرديني العكلى وقد قتلته بنو نمير، وبينه وبين شاعر آخر يدعى رأس الكبش خصومة أخرى فقتلته بنو نمير أيضا فكفته مؤونتهما[٢٩].

وقد أضاف قحطان رشيد التميمى أمثلة أخرى لهذه الخصومات ومنها ما وقع بين عمارة بن عقيل وابن أبى عينية - عمرو بن زعبل - وقد كان لمثل هذه الخصومات

كبير أثر فى تحول هؤلاء الشعراء عن الهجاء الشخصى إلى القبلى توسيعا لنطاق الهجاء[٣٠].

وقد اصطدم عمارة بن عقيل وناهض بن ثومة الكلابى بهجاء قبلى طويل وذلك فى النزاع الذى كان بين كلاب ونمير، وقد لعب فيها نفس الدور الذى كان يلعبه جده جرير من قبل حين كان يقحم نفسه بين القبائل، ومن ذلك تحريضه لكلاب وكعب ابنى ربيعة على حرب نمير، وكانت بنو نمير أعداءه، فكان يحض عليهم السلطان ويغرى بهم أخوتهم ويحاربهم فى عشيرته، يقول[٣١]:

رأيناكما يا ابنى ربيعة خرتما ... لعض الحروب والحديد كثير

وصدقتما قول الفرزدق فكيما ... وكذبتما ما كان قال جرير

أصابت غير منكم فوق قدرها ... فكل نميرى بذاك أمير

فإن تفخروا بما مضى من قديمكم ... فقد هُدّمت مدائن وقصور

فإن تعمروا المجد القديم فلم يزل ... لكمُ فى مضرات الحروب مريرُ

خبطتمْ ليوثَ الشام حتى تنادرت ... حماكم وحتى لا يهرُ عقير

فكيف بأكتاف الشريف نصيبكُمُ ... ثعالبُ يبحثن الحصى وأبور

فألهبت أبياته حماسة كلاب فأغارت على نمير وفضحتها، فقال ناهض بن ثومة يجيب عمارة وهو يذكرنا بالوقائع التى كانت بين قبائلهم فى نجد، وكان الصراع القبلى محتدما والأيام متداولة بين قبائل نجد الكبرى، بين بنى تميم وبنى عامر وأسد وعبس وذبيان أو بين ربيعة وقيس عامة[٣٢].

وذلك أمر طبيعى لشاعر مثل عمارة فقد نشأ فى البادية ورُبى بين القبائل وعاش أيام قبيلته ووقائعها، فكثيرا ما يشتبك بالهجاء مع شعراء القبائل ويذم بما يسيء إلى سمعتهم ومن ذلك قوله فى هجاء بنى تميم:

وجموع أسعد إذ تقضُّ رؤوسُهم بيض يطيرُ لوقعهنَ شرارْ

حتى إذا عزموا الفرار وأسلموا بيضًا حواصن ما لهن قرارْ

لحقت حفيظتنا بهن ولم تزل دون النساء إذا فُزعن نغارْ

فهو يصفهم بالجبن والفرار والانكسار، وبأنهم يسلمون نساءهم فى أيدى أعدائهم قوم الشاعر. فالمهجوون أناس لا يغيرون على أعراضهم ونسائهم.

وقد ذم بنى حنيفة ورماهم بالجبن والفرار وعدم الثبات فى اللقاء يقول[٣٣]:

مهلاً حنيفة إن الحرب قد طرحت عليكم بَرْكَهَا أسرعتُم ضجرا

وله فى بنى كعب هجاء[٣٤]، ولم يتوان عن هجاء بنى أسد[٣٥].

ولعل ذلك الهجاء القبلى يرجع إلى البادية موطنه الأصلى وانغماسه فى حياة البداوة والقبلية.

وعلى هذا النحو نلاحظ أن فن النقائض الفردية والقبلية قد استمرت فى العصر العباسى وما تزال القصيدة تدور حول فخر الشاعر بقومه والتحقير من شأن الآخرين فهى فخر وهجاء فى وقت واحد.

ولا تزال شخصية القبيلة تظهر قوية فى أحسابها وأنسابها ومفاخرها كالشجاعة والكرم والمنزلة الرفيعة على حد قول أمل ناجى فى بحثها[٣٦].

ولعل ظهور شخصية القبيلة قد أدت إلى ظهور العصبيات القبلية التى برع فيها عمارة وذلك نتيجة لتحول الشعراء من الهجاء الشخصى إلى القبلى كما لاحظ د/هدارة من قبل[٣٧].

ينضاف إلى ما سبق من براعة عمارة فى فن النقائض بشقيها الفردى والقبلى فإن لعمارة هجاءً شخصيا بلغ حدًا من الإقذاع ومثاله:

١- لعمارة تسعة أبيات يرد فيها على رجاء بن هارون أخى بنى تيم اللات بن

ثعلبة وأولها:

حـــى الـــديار كأنهـــا أســـطار بالوحى تـدرس صُـحفها الأحبـارُ

٢- وله ثلاثة أبيات فى هجاء بنى حنيفة. وأولها:

بل أيهـا الراكـب الماضـى لطيّتـهِ بلِّغ حَنيفةَ وانـشر فـيهم الخبـرا

٣- وله فى هجاء يحيى ودينار ابنى عبد الله يقول:

مـــا زال عـــصياننا لله يـــسلمنا حتى دُفعنـا إلـى يحيـى ودينـار

إلى عُليَجـين لـم تُقطْـع ثمارهمـا قد طال ما سجدا للـشمس والنـار

ويعيرهما بأنهما من المجوس ولم يختتنا.

٤- وله أيضا يهجو ابن مروان بن أبى حفصة ويحامى عن خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى:

فَعِرضـك لا يـوفى كريمًـا بعرضـه فهل يُوَفينْ منك الجـزازَ المـصمَ

كأنـك لـم تـسمع فـوارس وائـل إذا أسرجُوا للحربِ يومًـا وألجمـوا

٥- وله أربعة أبيات فى هجاء بنى نمير، وأولها:

بنـى منقـذ لا آمـنَ الله خـوفكم وزَادكُـمُ ذلاً ورقَّـةَ جانـب

٦- وله ثلاثة أبيات فى الهجاء، لا نعرف من قيلت فيه، وأولها:

ولا خيـر فيـه غيـر أن جيـاده مـسومةٌ ليـستْ بهـنَّ كلـومُ

٧- وأخرى فى الهجاء، لا نعرف من قيلت فيه، وأولها:

ثوى الضيفُ بالصفراء تغسقُ عينـه من الجوع حتى تحـسب الـضيف أرمـدا

ولا جدال فى أن هذه الأمثلة ليست كل ما قاله عمارة فى الهجاء الشخصى لأن البحث يقوم على العينة وليس الحصر[٣٨].

ونلاحظ فى القصيدة التى يرد فيها على رجاء بن هارون أخى بنى تيم اللات بن ثعلبة نجد عمارة يستهلها بالنسيب على طريقة شعراء النقائض غالبا.

وفى هذه النقيضة نجد العناصر التى عهدناها فى النقائض الأموية، ففيها التعيير بالفرار من المعركة، وترك النساء للأعداء، وبالأيام التى هزم فيها أعداءُ قبيلة الشاعر، وذكر الرجال الذين لاقوا حتفهم.

وفى الأبيات التى يهجو فيها بنى حنيفة نراه يذكر العصبية المضرية، ويعيرهم بالضجر من الحرب التى شبهها بناقة ألقت بركها عليهم، وعمارة ابن عقيل تميمى مُضَرى، وبنو حنيفة بكريون رَبعيون

وفى البيتين الذين يهجو يحيى ودينار ابنى عبد الله يصفهما بأنهما عُلَيْجان – وفى تصغير العِلْج تحقير واضح– ويصفهما بأنهما سجدا طويلا للشمس والنار على طريقة المجوس، والعلج هو الضخم من كفار العجم، ويحيى ودينار من أصل فارسى.

وعندما هجا فَروة بن حُميصة الأسدى وصفه بالفرار من الحرب هو وقومه مثل النعام النافر، ويقول العرب: أَشْرَدُ من نعامة، وأجبن من نعامة وأعدى من نعامة، وفى هجائه بنى نمير نجده يدعو عليهم بالذل ورقة الجانب ويعيرهم بنائلة التى تزوجت قاتل أبيها، ونستطيع أن نقول إن معانى الهجاء إسلامية وجاهلية على النحو الذى تركه الأسلاف من الأجداد.

المديح:

يكاد يكون المديح أهم الأغراض التى تفوق فيها عمارة بن عقيل، وربما كان أبرز الأغراض التى تبدو خصائصه الفنية بارزة فيها، والمديح موزع على بعض خلفاء بنى العباس من مثل المأمون والواثق، وعلى بعض القادة المشهورين مثل خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى الذى نال من مديح الشاعر أكثر مما ناله المأمون أو الواثق. وهذه نماذج من مدائحه(٣٩):

١-مدح الخليفة المأمون بقصيدة مطلعها :

حتامَ قلبك بالحسان موكّلُ كَلِفٌ بهن وهُنَّ عنه ذُهّلُ

٢- وله مدحة فى المأمون، مطلعها:

قالتْ مفدَّاةُ لما أن رأت أرقى والهمُّ يعتادنى من طيفه لمَمُ

٣- وقال يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى بقصيدة مطلعها:

حيا الإله خيالها من دانِ لو كان زار زيارة اليقظانِ

٤- وهذه فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد وذم تميم الشيبانى بن خُزيمَة ابن خازم النهشلى، ومطلعها:

أأترك إنْ قلّتْ دارهمُ خالدٍ زيارته إنى إذاً للئيم

٥- وهذه فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى، ومطلعها:

لم استطع سيرا لمدْحةِ خالد فجعلتُ مَدْحيَه إليه رسولا

٦- وهذه فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى، ومطلعها:

أرى الناس طُرًا حامدين لخالدٍ وما كلهم أفضَتْ إليه صنائعُهْ

٧- وهذه فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى، ومطلعها:

تـــأبى خلائـــق خالـــد وفَعالُـــهُ إلا تجنـــب كـــل أمـــر عائـــب

٨- وهذه هى الضادية المشهورة، يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ولعلها أشهر مدائحه فيه أو أشهر قصيدة لعمارة، ومطلعها[٤٠]:

عـــصرُ الـــشبيبةِ نَاضِـــرٌ غَـــضٌّ فيه يُنـــال اللينُ والخفـــضُ

٩- وقال يمدح الخليفة الواثق بقصيدة أولها:

عَـــرَفَ الـــديار رســـومها قَفْـــرُ لعبـــت بهـــا الأرواحُ والقَطْـــرُ

١٠- وهذه فى مدح الخليفة الواثق أيضا. ومنها هذا البيت:

وبقيتُ فى السبعين أيهـض صَـاعدا فمـضى لـداتى كلهـم فتـشعَّبُوا

تُقَّم الشَدّة وفتحها إلى اليسار وكذلك ضمة الباء.

١١- وقال يمدح بنى دارم بقصيدة مطلعها:

جـزى الله خيـرًا والجـزاءُ بكَفـه بنى دارم عن كـل جـانٍ وغـارم

نلاحظ مما سبق أن جُلّ مدائح عمارة كانت فى خالد بن يزيد بن مزيد الـشيبانى، ولعل القصيدة الضادية أشهر هذه المدائح فى خالد بن يزيد ين مزيد، ولعلهـا أشـهر قصائد عمارة بن عقيل على الإطلاق. ولعل هذه القصيدة الـضادية أروع ضـاديات العرب وأكثرها إشراقا وتألقاً.

وعليه فهذه الضادية خير ما يكشف عن مذهب عمارة بن عقيل فى الفن الشعرى ويوضح خصائصه الفنية.

قال يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى:

١- عصرُ الشبيبةِ نَاضِرٌ غَضٌّ
فيه يُنَـــال اللينُ والخفضُ

٢- مَثَلُ الشبيبة كالربيعِ إذا
ما جِيْدَ فاْخضرَّت لـه الأرضُ

٣- والشيبُ كالمَحْل الجماد، له
لونان مغبـــرٌ ومبيـــضٌ

٤- بينا الفتى يختـال كالغُصُن
المَوْلِىِّ أورَقَ خُوْطه الغَضُّ[1]

٥- سَمْحُ الخُطَى يهتزُّ فى غَيَد
ترنو إليه الأعيُـــنُ المُرْضُ

٦- سَنَحَتْ له دهياءُ من كثَـب
دانت خُطاه ومـــا به أَبْضُ[2]

---

(١) المولى : الذى أصابه الولى، وهو المصدر التالى، والأول الوسمى.

(٢) الأبض : حركة اللسان ، وهنا : أى ماله قدره.

١- فى المكاثرة :"ناعم غض" و"العيش و الخفض".

٢- فى المكاثرة : "به الأرض".

٧- ترك الجديدُ جديده سَمَـــلا

لا الصَوْنُ يُرْجِعُهُ ولا الرَّحْضُ[١]

٨- حتى كأن على الخطوب له

عينــاً تجنب جفنها الغمضُ[٢]*

٩- ولربّ جَـــــرّارٍ يَغَصُّ به

طولُ الفَضاءِ، ويَشْرَق العَرْضُ*

١٠- فتعاقُبُ الفَتَيَيْنِ يَقْدَح فى

صُم الصفـــــا فيظل يرفضُ

١١- أوعِظْ بشيبٍ ، قَصْرُ لابســه

كَرْهَانَ وَشْكُ الهُلك أو حرضُ[٣]

١٢- فسقَى الإلُه شيبـــةً درَسَتْ

أقْرضتُها فاستُرجع القـــرضُ

---

(١) سملا : باليا . الرحض : الغسل ، رحض ثوبه : أى غسله

(٢) البيت والذى يليه وردا فى موضع آخر من القصيدة ولعل ذلك تحريفا من ناسخ الديوان ومكانهما بالموضع اللاحق كى يستقيم المعنى ارجع إلى آمالى المرتضى : ٢ / ١٣٣: ١٣٥

(٣) الحرض – بالضم : المرض. والحرض : الذى نهكه المرض.

١٠- فى المكاثرة : وتعاقب

١١- فى المكاثرة : "وسقى الألُه "

١٢- فى المكاثرة : "يغض به "و يشجى الضبع والعرض"

١٣- وعُذافِر سُدْسٍ يَـــعَضّ به

رَحْلُ و يشجَى النِسْع والغَرْضُ[١]

١٤- أنضاه نَصٌّ سُرًى وهــاجرةٍ

حتى تَسَـــرّى النِىّ والنَحْضُ

١٥- وطوته أرض فانطوى بشوى

نِقْض عليه شـــــاحبُ نِقضُ

١٦- متسربِلُ بالليل مـــــدّرِعُ

بالآلِ ، والرمضـــــاءُ ترمضُّ

١٧- ينفِى ســـُراه كَرَاه عنه إذا

ما استَوْسَنَ النَوّامــة البضُّ[٢]

١٨- ويؤمَّ بحـــراً من بنى مطرٍ

لا النَزْرُ نـــائله ولا البَرضُ[٣]

---

(١) العذافر : الشديد من الإبل. السدس : دون البازل .النسع : حبل من أدم مضفور. والغرض، والغرضة: حزام الرحل

(٢) استوسن : من السنة وهى أول النعاس فى الرأس – نوامة: يقال رجل نوامة : أى كثير النوم . والبض : الناعم الظاهر النوم.

(٣) النزر والبرض : القليل ، وإنه ليتبرض : أى يأخذ قليلا قليلا.

١٤- فى المكاثرة : "أنضاه نضو سرى "

١٩- ترد العُفَاةُ عليـــــه واثقةً

بالرىّ حين يُغِصّهـا الجرْضُ[١]

٢٠- وإذا السِنون كَحَلْن عن بلل

وألــح منها النَهْسُ والعَضُّ[٢]

٢١- وتأرّثت للشِـــــعْرَيَينِ بها

نارُ وعَزّ القرض والفَرْضُ[٣]

٢٢- ورأى المُسَيمُ الأرضَ خاشعةً

لا خُلّة نَجمَتْ ولا حَمْـضُ[٤]

٢٣- فهو الربيـــعُ لها المَريعُ إذا

ضَنَّ الربيع وأخلَفَ الوَمْـضُ

٢٤- وإذا الأمور دَجت وضِيقَ بها

ذرعُ وخِيْفَ مَزَلُّها الدَحْـــضُ

٢٥- جَلَّى دُجُنّتَهَا لنـــــــاظِرِه

رأىُ له الإبرامُ والنَقْـــــضُ

---

(١) الجرض : يقال جرض بريقه جرضا: غص به. والجرض : الغصة.

(٢) كحلن : اشتددن.

(٣) تأرثت : تلهبت. الشعريان : من نجوم القيظ. وعز القرض والفرض لكلب الزمان

(٤) سامت الماشية : رعت ، وأسامها المسيم : أرعاها الراعى . والسائمة : الراعية . الخلة: ما كان حلوا من المرعى، فهو كالخبز للإبل. الحمض : الحامض وهو كالفاكهة لها.

٢٦- رايُ إذا ناجى الضميرَ به

وَحَدَيْنِ أُبرز ضحكهُ المحضُ[١]

٢٧- حتى كأن على الخطوبِ له

عينـــا تجنّبَ جفنها الغَمْضُ*

٢٨- ولرب جرارٍ يغـــض به

طولُ الفَضاء ويشرَقُ العَرْضُ[٢]

٢٩- تجِفُ القلوبُ له ويُشخصها

عـــن مستَقِّر قرارِها أرضُ[٣]

٣٠- كالليل أنجمُهُ سنَـــاً وَظُبًى

تخفـــاقهُنّ الهبْر والوَخْضُ[٤]

٣١- ومَعَابلُ مسنونـــة ذُرُبُ

يحـــدو بها شرَع لنا نَبْضُ[٥]

---

(١) الضحك هنا : الزبد

(٢) الجرار : الجيش الجرار . يشرق : يمتلئ ولذلك يغض به. وهذا البيت وما سبقه تكرار فى أول القصيدة وهذا هو الموضع الصحيح كى يستقيم المعنى.

(٣) الأرض هنا : الرعدة

(٤) الهبر : القطع، والوخض: الطعن.

(٥) معابل : جمع معبلة ، وهى السهام . الشرع : الأوتار. والنبض : الصوت.

---

٢٩ - فى المكاثرة :"وتشخصها"

٣٠- فى المكاثرة : "شباً وظبى" و "تحالفهن"

٣١- فى المكاثرة : "تحدو بها"

٣٢- قُدْتَ الحتوفَ إليه فى لَجِبٍ

لليـــمٍّ منه اللونُ والعرضُ[١]

٣٣- كقدى جربان وريشـــة، إذ

حشر القضيض عليك والقضُ[٢]

٣٤- لم يشكروا نُعماك إذ غَمَطوا

نعماك، إذ سخطوا ولم يُرضوا*

٣٥- وشريتَ نفسَك والقنا قِصدُ

والبَيـــضُ تحت البيض مرفضّ

٣٦- وعليك داودّية كأضِـــــا

ة اللُوب. ما فى سَرْدَها حَبْضُ[٣]

٣٧- والسرجُ فوق أقبّ تحمله

عـــوجُ بناهُ البَسْطُ والقبضُ[٤]

---

(١) يقول : جيشك كالبحر فى لونه من الحديد الذى فيه، وفى عرضه كثرة واتساعا.

(٢) هذا البيت لم يرد فى رواية الطرائف الأدبية باعتناء الميمنى.وأظنه مقحما على القصيدة.

(٣) شبه الدرع بالإضاءة فى اللون. واللوب : جمع لابة ، وهى الأرض تنحدر عن الجبل وتلبسها الحجارة. والحبض: الحركة

(٤) العوج : قوائمه فيها انحناء ، وهى قليلة اللحم.

٣٢- فى المكاثرة : "لم يشكروا بقياك" و "إذ غمطوا" و "إذ شخصوا فما أرضوا".

٣٥- فى المكاثرة : "ترفض"

٣٧- فى المكاثرة : "يحمله و "غوج ثناه البسط"

٣٨- كسبيكـــة العقيـــان أدمَجه

محضٌ،وألحقَ إطْلَه العُضّ[١]

٣٩- فكأنه فتخـــــــاءُ مُلْحِمةٌ

فرخين طُلّت وهى ترفضُّ [٢]

٤٠- حتى ثنى من بين منجَـدِلٍ

أو هاربٍ لم يُنْجِهِ الرَكْضُ

٤١- عَزّ الهدى بك بعـد ذلتـه

والكُفْرُ ذَلَ فما بـــه نَغْضُ[٣]

٤٢- شطران يومك للندى بعضُ

والمكرُمات، وللـــردى بعضُ

٤٣-حُزْتَ الندى والبأسَ عن سلفٍ

سَنُّوهما وعليهما حضّـــوا

٤٤- سُبُط الأنامل يجـــذَلون إذا

سُئلوا ويغتمـــون إن عُضّـــوا

٤٥- فكأن حِلَّ المـــــال عندهم

حِجْرٌ وحُبُّ مَصُونه بُغْـضُ

---

(١) يقول : هذا الفرس بدنة المحض، وهو اللبن الصريح . والعض : العلف

(٢) الفتخاء : العقاب . وملحمة : تجئ باللحم إلى أفراخها.

(٣) النغض : الحركة

---

٣٩ – فى المكاثرة : " ظلت وهى ترفض"

٤٦- كَنَزَ المحامدَ وهى بـــاقية

محمودة لا العَيْنُ والعـرْضُ

٤٧- أشبهتَهم وخلفتَهم فهـــم

باقون ما عُمرتَ لم يَمْضُـوا

٤٨- وإذا ربيعةُ قال فاخـــرها

واستُنْبئَ الحكماءُ كى يقضوا

٤٩- "منا يزيد وخالد " خَنَعَـــت

صِيدُ القُروم وأُفحم العِضُ[١]

٥٠- ومؤمِّلين بخالد شَحطـــت

بهم البلاد وعاقَهم أَبـْضُ[٢]

٥١- وَفَدت عليهم من نَدَاك لُهىً

تَتْرَى فلم يُحْنُوا ولم يُنْضُوا[٣]

---

(١) الخضوع . العض : الداهية من الرجال.

(٢) الأبض : الجيش

(٣) اللهى : جمع لهوة، وهى الدمغة من العطباء. يقول : ما أجوجتهم أن يخفوا إبلهم إليك وينضوها

٤٤- فى المكاثرة : "ويغتفرون إن عضوا"

٤٦- فى المكاثرة : "كنزوا المحامد"

٥١- فى المكاثرة : "فجرت عليهم " و"فلم يحفوا ولم ينضوا".

٥٢- لى حُـــرمة بكم تكنفها

أمـــــل وودٌ صادق مَحْضُ

٥٣- وذريعتى ثقتى وفضلُك إذ

شَرُف الفَعالُ وطُهّر العَرضُ

٥٤-هنأتنى بـــــراً ملكتَ به

شكرى وشكرك واجب فرضُ

٥٥-لم تبتذِل وجهى ولا شَفعت

شفَعاء لى فى منّها هَضٌ[١]

٥٦- فَقَـدَاكَ مناعون لو ملكوا

مَدَدَ البحار إذن لما بَضُّوا[٢]

٥٧- عَضُّـوا شفاهم وأيديَهم

حَسَداً عليك وطالما عَضُّوا

٥٨-ولَووْا معاطَسهم على لَهَبٍ

تحت الكشوحِ وليتهم رُضُّوا

٥٩- فَهَنَاك أنَّك مُنْتَهَى أَمـــلَى

جـــادٍ وراجٍ ما به نهضُ

---

(١) الهض : الرضم ، يقال هضه : إذا دقه وضربه

(٢) يقال : فلان ما تبض صفاته : أى لا يعطى شيئاً

٥٦- فى المكاثرة : "لم تبتذل".

٥٩- فى المكاثرة : "فهناك ربك منتهى أملى" و "جاز وراق"

أما الممدوح فهو قائد ووال من قواد بنى العباس وولاتهم. وهو من بيت عريق فى الجاهلية والإسلام. فأبوه يزيد بن مزيد بن زائدة بن عبد الله بن مطر بن شريك بن خالد الشيبانى. وشيبان معروفة فى الجاهلية والإسلام بالشجاعة وقوة الشكيمة. ويوم ذى قار الذى انتصر فيه العرب على الفرس كان بقيادتهم. ومنهم المثنى بن حارثة الشيبانى. ويزيد هو ابن أخى مَعْن بن زائدة الشيبانى. كان أحد الأمراء الأجواد المشهورين ولى إمارة اليمن فى زمن الرشيد وقدم بغداد وكان مقصودا ممدوحا(٤١).

وتذكر الروايات أن يزيد مدحه الشاعر صريع الغوانى مسلم بن وليد. فأمر يزيد بن مزيد وكيله أن يبيع ضيعته ليعطى الشاعر نصف ثمنها ويحتبس نصفا لنفقته. وقد وَلِىَ خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى الثغور. وقاد الجيوش التى أتعبت الروم ثم عزل عن هذا المنصب. ثم عقد له على أرمينية بعد أبيه يزيد بن مزيد. وتشير الروايات إلى أن خالداً كان ينفق ما عنده مستجيبا لدواعى الكرم من غير أن يحسب للفقر حساباً. وفى شعر عمارة ما يؤكد أن خالداً مات فقيرا. ويقول الرواة أن دار خالد بن يزيد بيعت فى أيام الخليفة المطيع بعد إدبار بغداد والدولة بعشرة آلاف درهم. وكان فى هذه الدار مسجد كبير لصلاة خدمه وحشمه. ولم يكن عمارة بن عقيل الشاعر الوحيد الذى مدح خالد بن يزيد. فقد مدحه أبو تمام معاصر عمارة بقصائد خمس(٤٢).

وقد كتب أبو العباس ثعلب بأبيات منها إلى الوزير إسماعيل بن بلبل فأعطاه ألف دينار. وكان الذى أوصلها إليه أبو طالب المفضل بن سلمة. وقال الأخفش: وأنشدنا " هذه الضادية" أبو العباس محمد بن يزيد المبرد لعمارة بن عقيل. وقال: "أى المبرد": هو أشعر فيها من أبيه وجده. وقد أثبت جعفر بن محمد الطيالسى من علماء القرن الثالث هذه الضادية فى كتابه "المكاثرة عند المذاكرة"(٤٣).

وهذه القصيدة تقع فى ستة وخمسين بيتا من محكم القول. وهى من الكامل. ويستهل الشاعر قصيدته بالنسيب. ويتحسر على عهد الشباب الذى مضى ولن يعود. ويبكى المشيب وأوجاعه. وإذا كان الشباب هو الربيع للأرض فالمشيب هو بمثابة المحل والقحط والجفاف. وينتقل الشاعر من الحديث عن الشباب والمشيب إلى وصف رحلته فى الصحراء قاصدا الممدوح على عادة الشعراء الجاهليين.

ووسيلة الشاعر فى رحلته بعير قوى فتى. وبفعل الرحلة الطويلة أصابه الإعياء حتى ذاب شحمه ولحمه، والشاعر كذلك أصابه ما أصاب بعيره فالشاعر وبعيره أصابهما الشحوب والهزال. ويتخلص من وصف الرحلة إلى الموضوع الرئيسى للقصيدة وهو المديح. فالممدوح من بنى مضر الشيبانيين. وهو بحر فى جوده وعطائه. وهو ربيع للناس إذا تأخر المطر وتخلف الربيع. والممدوح ثاقب الرأى نافذ البصيرة حذر لا تنام عينه ولا تغفل عن الأمور الجسام. ثم يصف براعته فى قيادة الجيوش وتحقيق النصر على الأعداء على نحو يذكرنا برائية الأخطل التغلبى فى مدح الخليفة عبد الملك بن مروان. ويشير الشاعر إلى عزل الممدوح عن ولاية الثغور. ويصف هذا العزل بالجحد ونكران الجميل. وأخذ يصف هيئة الممدوح فى الحرب ويصف فرسه وسرعته. ثم توجه إلى قوم الممدوح وآله وقد شملهم بمدحه. فهم أجواد ذوو مآثر يعافون الضيم كابرا عن كابر. والممدوح يشبه آباءه. وحسب الربعى أن يفاخر بالممدوح وأبيه. وأخذ يستدره العطاء والبذل ليصون ماء وجهه من سؤال الناس المنَّاعين للخير. والممدوح منتهى أمل الشاعر ورجائه فى الجود الذى لا يبطله بالمن والأذى.

فالشاعر عمارة بن عقيل فى هذه القصيدة يعنى بتقاليد القصيدة العربية المعروفة عناية ملحوظة. فقد استهلها بالنسيب. وتخلص من موضوع إلى

موضوع تخلصا حسنا. واستطاع أن يمزج المديح بالسياسة مزجا رائعاً حين يشير إلى عزل الممدوح عن ولاية الثغور. ومعانى المديح فى جملتها مُنتزعة من البيئة البدوية ومع ذلك فإننا نجد هذه المعانى تستند إلى المفاهيم الإسلامية أحياناً. فى مثل قوله(٤٤):

عَزّ الهدى بك بعد ذِلته

والكُفْرُ ذَلَّ فما به نَغْض

والشاعر لم يسجل انتصارات الممدوح الحربية على أعدائه كما سجلها للممدوح نفسه أبو تمام الشاعر فى معركة انتصر فيها الممدوح انتصارا حربياً ساحقاً على تيوفيل إمبراطور بيزنطة(٤٥).

ويلاحظ الباحث من أول وهلة ثروة الشاعر اللغوية فى هذه القصيدة التى بناها على الضاد. ولغة الضاد هى اللغة العربية . أى أن هذه القصيدة بنيت على حرف يكنى به على العربية. وفى ذلك غاية التمثيل للموقف الرسمى.

والألفاظ الوعرة والغريب يشيع فى هذه القصيدة. فلا يكاد يخلو بيت واحدٍ من الغريب . وذلك راجع إلى سببين:

أولهما : ثروة الشاعر اللغوية. فهو راوٍ للغة والغريب والوحشى.

وثانيهما : إرضاء اللغويين والرواة الذين صاروا سدنة وحراسًا فى هذا العصر.

وعمارة فى ذلك يريد أن ينقل الممدوح إلى البادية والصحراء التى نبت فيها هذا الغريب. ومن أمثلته ما جاء فى البيت رقم ٣٨ و٣٩ فى وصف الفرس، وهو فى ذلك مقارب لرؤبة بن العجاج الراجز عندما جعل من أراجيزه متونا لغوية تحفل بالغريب والشاذ من الأساليب لينال إعجاب الرواة واللغويين قبل كل شئ. والشاعر فى قصيدته يتمثل العاداتِ البدوية تمثلا حسنا.

ومن مثل ذلك قوله[٤٦]:

وإذا ربيعةُ قال فاخـــــرها

واستُنْبئَ الحكماءُ كى يقضوا

منا يزيد وخـــالدٌ خَنَعَـــت

صِيـــدُ القُروم وأُفحم العضُ

ففى هذين البيتين إشارة واضحة إلى المنافرة عند الجاهليين، والمنـــافرة: المفاخرة والمحاكمة فى الحسب وعراقة النسب. والأصل فى عقدها أن يفتخـــر رجلان كل واحد منهما على صاحبه. ثم يُحكّما بينهما رجلا كفعل علقمة بـــن عُلاثة مع عامر بن الطفيل حين تنافرا إلى هرم بن قطبة الفزارى. وكانت عادة العرب أن يتحاكموا إلى الكهان أو إلى وجهاء قريش[٤٧].

واستعان الشاعر بالتشبيهات والاستعارات ليبرز صورة الممـــدوح. ومعظـــم هذه التشبيهات والاستعارات مستمدة من البيئة البدوية. كتصويره الفرس بالعقاب فى شدة السرعة كقوله:

٣٨- كسبيكـــــة العِقيـــان أدمَجه

محضٌ،وألحقَ إطْلَه العُضّ

٣٩- فكأنه فتخـــــــاءُ مُلْحِمةُ

فرخين طُلّت وهى ترفضُّ

فالشاعر ينقل الممدوح إلى بيئة البادية بمشاهدها اليومية، فحصان الشاعر من اللون الذهبى الذى يشبه سبيكة الذهب، وهو من ناحية الحجم يعد مثالا للجـــواد النجيب، فهو مدمج الجسد، طعامه من خير ما يقدم للخيل لـــذا انعكـــس علـــى سرعته فبدا كالعقاب فى شدة السرعة وقد أراد الشاعر أن يجعل العقـــاب فـــى

ظروف عصيبة فقد تركت من خلفها فراخها الصغار حتى تعود إليهم بالغذاء مسرعةً.

ولا تخلو هذه القصيدة من زخارف البديع كالجناس والطباق وغيرها من هذه الزخارف التى شاعت فى هذا العصر.

غير أن الشيء اللافت للنظر هو حرصه الشديد على بناء العجز بناءا بديعيا كالطراز وهو ما يطلق عليه البلاغيون التطريز تارة والتوشيح أخرى. فقد يأتى باسم مثنى ثم يتلوه باسمين مفردين هما غير ذلك المثنى ويكون الأخير منهما هو القافية[٤٨]. كقوله:

٣- والشيبُ كالمَحْل الجماد، له

لونان مغبـَّرٌ ومبيـضٌ

١١- أوعِظْ بشيبٍ ، قَصْرُ لابسه

كَرْهَانَ وَشْكُ الهُلك أو حرضُ

٢٥- جَلَّى دُجُنتّهَا لنـاظِره

رأيُ له الإبرامُ والنَقْضُ

٤٢- شطران يومك للندى بعضُ

والمكرُمات، وللـردى بعضُ

ونلاحظ قيمة الفصل فى البيت الأخير بين كلمتى الندى والمكرمات بكلمة بعض فى نهاية الشطر الأول ليعقد جناسا تاما بين شطرى البيت بكلمة بعض وذلك للتوغل فى الموسيقى الداخلية.

وعلى هذا النحو نلاحظ أن عمارة بن عقيل امتلك قوام الفن بشقيه الشكل والمحتوى، وقد حافظ على القيم الفنية المتوارثة عن الأسلاف منذ العصر

الجاهلى، فقصائده تعد إحدى متون العربية التى يقف من خلالها سادنا من سدنة العربية وحماتها وهى تذكر بمتون العربية وأوابدها التى كنا نعهدها عند رؤبة وابنه عقبة وبشار بن برد وأبى نواس والعمانى الراجز وغيرهم من أساطين الرجز العباسى.

كما رأينا حرص عمارة على استمرار النهج العربى للقصيدة من بداية بالنسيب وتحسر على أيام الشباب وبكاء الشيب إلى وصف الرحلة والراحلة ثم يتخلص تخلصًا حسناً إلى المديح وهو الغرض الرئيسى فى القصيدة ويحمد له ما قام به من مزج المديح بالسياسة مزجاً فريداً يحسب له.

كما نلاحظ حرصه على استمرار فن المنافرات العربية فى ختام القصيدة وهو تقليد مستمد من البادية.

ولا يفوتنى أن أشير إلى أنه أحيا فن النقائض الأموية شكلاً ومحتوى ولا عجب فى ذلك فالبيئة واحدة وهى البادية، ولم تختف النقائض بعد عصر جرير والفرزدق والأخطل كما ذهب إلى ذلك د/ محمد مصطفى هدارة فى كتابه(٤٩). بل استمرت طوال القرنين الثانى والثالث الهجريين فى البادية على المستويين الفردى والقبلى وقد نتج عن هذا الاتجاه أن نشأ فى المدن مثيله من النقائض الحضرية الفردية إلا أن طبيعته تباعد بينهما رغم إمعانه فى التشبه بأخيه البدوى، ومن أمثلة هذا الاتجاه نقائض مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر وغيرها من شعراء العصر(٥٠).

وعلى هذا النحو نستطيع أن نتلمس الأثر الوراثى فى شعر عمارة بن عقيل على النحو الذى انتهى إليه أحد الباحثين من قبل:

"وأول ما يظهر فيه إنما يكون فى ظهور شاعر من نسل شاعر، أو فى أسرة، أو بيت شعر. حينها لا يمكن إنكار أن شاعرية الفرع إنما ترجع فيما

ترجع إلى شاعرية الأصل"[٥١].

وعليه فشاعرية الحفيد لها صلة بشاعرية جده الشاعر الكبير جرير بن عطية، فقد ورث الحفيد عنه فن الشعر كابرا عن كابر فحافظ عليه وأثراه بما أضاف وجدد.

الهوامش

١- انظر: عمارة بن عقيل: طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٧٨، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٢٤/٢٤٥ ، وتاريخ بغداد ٢/ ٢٨٢ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ص ١٢٠، أخبار النحويين البصريين: ٨٤.

٢- العمدة : ٢/ ٣٠٦ ، وما بعدها.

٣- انظر معجم الشعراء: ص ٧٨.

٤- انظر نزهة الألباء : ص ١٢٠.

٥- انظر الأغانى: ٢٠/ ١٨٤ وما بعدها. وانظر الديوان: ٣٨ القطعة رقم ١٩.

٦- انظر تاريخ الرسل والملوك: ٩/ ١٤٦، والعيون والحدائق: ٣/ ٥٣٣وما بعدها.

٧- القطعة رقم ٩٦، وانظر مقدمة المحقق: ١٦ بقلم شاكر العاشور ، يقول فيها:

كبرت ودَّق العظم منى وعقنى بنّى وأجلت عن فراشى القعائدُ

وأصبحت أعمى لا أرى الشمس بالضحى تعيرّنى بين البيوتِ الولائدِ

٨- امرأة هجان: كريمة الحسب لم تعرق فيها الإماء.

٩- ومُخْلجٍ : أى مفطوم، وانظر الديوان: ٣٦ القطعة رقم ١٦.

١٠- انظر الديوان: ٣٨ القطعة رقم ١٨ من الرجز.

١١- إلا أن صاحب الأعلام أشار إلى ان وفاته كانت فى عام تسعة وثلاثين بعد المائتين، وأكد ذلك جامع شعره، ارجع إلى الأعلام: ٥/ ١٩٣ ، ومقدمة الديوان: ١٧.

١٢- انظر: الأغانى: ٢٤/ ٢٥٧، ٢٥٨.

١٣- الأمالى: ٢/٣٥.

١٤- مجالس العلماء: ص ١٩٣- المجلس (٩٤).

١٥- أخبار النحويين البصريين: ص ٨٤، وما بعدها، وانظر طراز المجالس: ص ٢٥٧ ، ومعجم البلدان(جمانة)، وإنباه الرواة على أنباه النحاة: ٢٨٢/٣، وما بعدها، وفهرست ابن النديم: ص ٩١.

١٦- نقائض جرير والفرزدق : ١/ ٢١٩ (طبعة ليدن).

١٧- انظر الأغانى: ١٨٣/٢٠ (ساسى)، والكامل فى اللغة والأدب: ١٨/١.

١٨- المرجع السابق: ٢٠/ ١٨٣ (ساسى).

١٩- طبقات الشعراء: ص ٣١٦.

٢٠- انظر أخبار أبى تمام: ص ٥٩ - ٦١.

٢١- الفهرست: ص ٢٣٣، ٢٤١. وقد قام الشيخ شاكر العاشور بجمع شعره، ونشره والتقديم له: مطبعة البصرة ١٩٩٣م وهى النسخة التى اعتمدت عليها الدراسة.

٢٢- الديوان: ٣٨ القطعة رقم ٨٧. وانظر أيضا: المصدر نفسه: ٤٥ القطعة ٣١.

٢٣- المصدر نفسه: ١٠٧ القطعة رقم ١٠٩.

٢٤- السابق: ٩٧ القطعة رقم ١٠٠.

٢٥- السابق: ٧١ القطعة رقم ٦٦.

٢٦- السابق: ٤٢ القطعة رقم ٢٨.

٢٧- الأغانى: ٢٤ - ٢٤٧، ٢٤٨.

٢٨- المؤتلف والمختلف للآمدى: ١٤٦ تحقيق: عبد الستار فراج ط الحلبى ١٩٦١، وانظر أيضا: الأغانى: ٢٤ - ٢٤٦، ٢٤٨.

٢٩- الأغانى: ٢٤ - ٢٤٨.

٣٠- اتجاهات الهجاء فى القرن الثالث الهجرى: ١٠١ ، دكتوراه بجامعة عين شمس ١٩٧٦.

٣١- الكامل فى اللغة والأدب: ٩٦/١ وقوله: خبطتم ليوث الشام يريد ما كان من نصر بن شبث العقيلى، وأبور: جمع وبر، وإذا انضمت الواو من غير علة فمهزها جائز.

٣٢- تاريخ الشعر العربى د/ الكفراوى: ٢/ ١٦ - ١٧.

٣٣- ديوان عمارة : ٤٥.

٣٤- السابق: ٧١

٣٥- السابق: ٤٢ ، والكامل للمبرد: ٦٧/٢.

٣٦- الهجاء فى العصر العباسى الأول: ١٦ ماجستير بآداب القاهرة ١٩٦٨م.

٣٧- اتجاهات الشعر العربى فى ق ٢ هـ: ٢٤٧ ، الكتب الإسلامى ببيروت : ١٩٨١.

٣٨- وقد أضاف شاكر العاشور جامع الديوان مقطوعة فائية فى هجاء محمد بن وهيب رقمها ١٠٢ ص١٠٠، انظر الديوان: القطع أرقام: ٣١، ٤٢، ٩٩، ٧٥، ١١، ٧٦، ٢٣ على الترتيب.

٣٩- راجع الديوان: القطع أرقام: ٦٢، ٧٣، ٨٧، ٧١، ٦٣، ٩٤ على الترتيب.

٤٠- الديوان: القطعة رقم ٥٣ قافية الضاد، وانظر مقدمة المحقق: ١٧ "وتعد هذه الضادية من أروع ضاديات العرب، بل أكثرها إشراقا وتألقا" انظر الأمالى للمرتضى: ٢/ ١٣٥- ١٣٥

والشاعر عمارة بن عقيل فى هذه الضادية جد حريص على استمرار القيم الفنية المتوارثة فى القصيدة العربية من لدن إسلافه من شعراء العصر الجاهلى وصدر الإسلام وبنى أمية، إذ يبدو سادنا للغة العرب ولا أدل على ذلك من اختياره لروى الضاد وحرصه على الثروة اللغوية الهائلة من الغريب والشاذ - ارجع إلى الطرائف الأدبية للميمنى : ٥٤/٤٦.

٤١- انظر تاريخ بغداد: ٤/ ٣٣٤ - ٣٣٧. وجمهرة أنساب العرب: ص ٣٢٦ وما بعدها. وانظر ترجمته: وفيات الأعيان : ٦ / ٣٢٧ .

٤٢- انظر هذه القصائد فى ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى: ١ / ٧، ١٧٧، ٤٠٥، ٣٢٣ ، ٢ / ٣٨٣.

٤٣- انظر الكتاب المذكور : ص ٤٦ - ٥٠

٤٤- البيت رقم ٤١ برواية الديوان.

٤٥- انظر ديوان أبى تمام : ١ / ١٨٩.

٤٦- البيتان رقم ٤٨، ٤٩ برواية الديوان، والعض: الداهية من الرجال

٤٧- لسان العرب : مادة نفر، وارجع إلى أدب أعلام الكهان فى الجاهلية، محمد محمد الجطلاوى، دكتوراه بجامعة طنطا ١٩٩٦م

- تطور الفخر فى الجاهلية وصدر الإسلام: فراج جودة فراج، دكتوراه بجامعة القاهرة: ٢٣ - ٢٦.

- فن المنافرات فى الجاهلية: جمال عيسى، بحث مقدم إلى مؤتمر دار العلوم بالفيوم جامعة القاهرة، نوفمبر ٢٠٠٠م.

٤٨- ارجع إلى جوهر الكنز لابن الأثير تحقيق محمد زغلول سلام منشأة المعارف الإسكندرية. ومثاله: البيت رقم ٣: لونان مغبَّر ومبيَّض، والبيت رقم ١١ قوله: كرهان وشك الهلك أو حرض، والبيت رقم ١٤، والبيت رقم ٢٥.

٤٩- اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى: ٤٤٧، المكتب الإسلامى بيروت.

٥٠- نقائض مسلم والحكم بن قنبر: جمال عيسى بحث مقدم إلى مؤتمر أعلام دمياط ١٩٩٦م.

٥١- الأثر الوراثى فى الشعر العربى حتى نهاية العصر الأموى: ياسر أحمد عمارة: ٣٦، رسالة دكتوراه بجامعة طنطا ٢٠٠٦م .

المراجع

١ أخبار أبى تمام، أبو بكر محمد بن يحيى الصولى، حققه خليل محمود عساكر وزميلاه. المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر. بيروت.

٢- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى، نشره كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦م.

٣- الأغانى: للأصفهانى، جـ٢ ، طبعة الساسى، مصر، جـ٢٤ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

٤- الأمالى وذيل الأمالى والنوادر، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادى، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٥- إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى، مطبعة دار الكتب المصرية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٥٠م.

٦- تاريخ بغداد- الخطيب البغدادى، دار الكتب المصرى، بيروت.

٧- تاريخ الشعر العربى، د. محمد عبد العزيز الكفراوى، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٤م.

٨- تاريخ الرسل والملوك، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨م.

٩- اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى، د. محمد مصطفى هدارة – المكتب الإسلامى، بيروت.

١٠- جمهرة أنساب العرب لابن حزم، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢م.

١١- جوهر الكنز، لابن الأثير، تحقيق/ د. محمد زغلول سلام منشأة المعارف بالإسكندرية.

١٢- ديوان أبى تمام: تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر ١٩٥٦م.

١٣- ديوان عمارة بن عقيل تحقيق وجمع شاكر العاشور مطبعة البصرة ، ١٩٧٣.

١٤- طبقات الشعراء المحدثين، عبد الله بن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر.

١٥- الطرائف الأدبية للميمنى الراجكوتى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٦- العمدة : لابن رشيق : تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، نشر دار الجبل ، بيروت ١٩٧٢م.

١٧- الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، مطبعة الاستقامة، بالقاهرة.

١٨- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد، مؤسسة المعارف بيروت.

١٩- لسان العرب : لابن منظور : نشر دار المعارف بمصر.

٢٠- مجالس العلماء للزجاجى: تحقيق عبد السلام هارون – الكويت ١٩٦٢م.

٢١- معجم البلدان لياقوت الحموى، دار صادر بيروت.

٢٢- معجم الشعراء، لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزبانى : تحقيق/ السيد عبد الستار فراج ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.

٢٣- المكاثرة عند المذاكرة، جعفر بن محمد الطيالسى، عارضه وعلق حواشيه: محمد بن محمد ابن تاويت الطنجى، انقرة، ١٩٥٦م.

٢٤- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء، لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن ابن محمد الانبارى، تحقيق/ الدكتور إبراهيم السامرائى، مطبعة المعارف، بغداد.

٢٥- نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة معمر بن المثنى، ليدن، ١٩٠٧م.

٢٦- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٠.

الرسائل الجامعية:

١- الأثر الوراثى فى الشعر العربى حتى نهاية العصر الأموى: ياسر السيد عمارة، دكتوراه بجامعة طنطا ٢٠٠٦م.

٢- أدب أعلام الكهان فى الجاهلية، محمد محمد الجطلاوى، دكتوراه بجامعة طنطا ١٩٩٦م.

٣- تطور الفخر فى الجاهلية وصدر الإسلام، فراج جودة فراج، دكتوراه بجامعة القاهرة ١٩٨٦م.